قصصنا القومي

بحث للكاتبة السورية
ألفة الأدلبي

ما من ثورة كان لها تأثير فعال في تطوير حياة أمة من الامم الا انبثقت اول ما انبثقت من شق القلم قبل أن تلمع على شفرات السيوف ، أو تنطلق من فوهات المدافع .

وما كان لثورتنا العربية التي جاءت تهدف الى تحرير العرب من الاستعمار والى بناء مجتمع جديد تكفل للفرد العربي حياة شريفة كريمة أن تشذ عن هذه القاعدة . كان أول من مهد لهذه الثورة المفكرون والأدباء حين راحوا يصورون في أدبهم الواقع الأليم الذي يعيشه العرب في مختلف اقطارهم . فما الأدب بمفهومه العام الا تعبير عن واقع الحياة التي يعيشها الأدباء ، أو الناس من حولهم ، ثم عن الأحداث التي يتفاعلون بها ، واخيرا عن الأهداف التي يرمون اليها .

ولما كان نضالنا القومي من أهم الأحداث التي تفاعل بها ، ومن اسمى الاهداف التي نرمي اليها ، كان من البديهي أن تظهر صور هذا النضال في تاريخنا الأدبي على مختلف فنونه وألوانه . ولا تكون مغالين أبدا اذا قلنا انه احتمع لدينا نحن العرب منذ مطلع هذا القرن الى يومنا هذا ثروة طائلة من الأدب القومي ما تحالفها احتمعت لغيرنا من الامم ، ولا بد لنا أن نتساءل : هل كان للقصاصين العرب نصيب في حمل الرسالة القومية كما كان لغيرهم من الأدباء وبخاصة الشعراء ؟

ومما لا شك فيه ان شعرنا القومي كان نقطة الانطلاق لفكرة الوحدة العربية بعد أن شتت شملها المستعمرون ومن قبلهم الشعوبيون . فكان الشعراء العرب حين يهاجمون الاستعمار العثماني يهاجمونه باسم العرب كأمة واحدة ، ولذا كان لهم تأثير واضح في بعث الثورة العربية الكبرى ضد الأتراك .

غير ان الشعر يهزنا هزة آنية سريعة . أما القصة فتتسلل الى افكارنا برفق وتؤدة ، وتتغلغل في أغوار عميقة من نفوسنا قد يعجز عن بلوغها أي فن من فنون الأدب ، لأن كل فكرة تنمو ببطء ، كما تنمو الفكرة في القصة ، لا بد لها حين تستكمل نموها أن ترتبط في الذهن ، وتسيطر على التفكير سيطرة من الصعب التغلب عليها ، او التخلص منها ، وهذا ذلك فالقصة كما يقول الشاعر الانكليزي ـ لويس ماكنيس ـ خمار عفف يستطيع أن يهضم كل شيء ، ويستوعب أي لون من الوان الحياة .

كذلك نجد القصة ، لاسيما في عصرنا هذا أكثر انتشارا وتداولا بين القراء من أي نوع آخر من الأدب ، وما ذاك الا لأن القراء يتذوقونها على مختلف أذواقهم وثقافاتهم وأعمارهم .

فالى أي مدى استطاع القاصون العرب أن يفيدوا من هذه الطاقة الهائلة للقصة ؟ وهل استطاعوا أن يستغلوا فعاليتها في خدمة الثورات العربية والمبادىء القومية ؟

قبل أن نصدر حكمنا لا بد لنا أن نلقي نظرة خاطفة على تاريخ القصة في أدبنا العربي الحديث .

لقد أجمع مؤرخو القصة العربية على أننا أول ما كتبنا القصص كتبنا القصص الاجتماعية ذات المغزى الاخلاقي التهذيبي ، ثم القصص العاطفية ، وقصص المغامرات ، ثم القصص التاريخية . أما القصص المستوحاة من بيئاتنا القومي فلم تظهر في الفترة الأولى من نشأتنا القصصي ، هذا على الرغم من كثرة الحوادث التي توحي بها ، ومن شدة الحاجة اليها . وما نخال هذا التخلف جاء عن تقصير من القصاصين العرب بل جاء كنتيجة حتمية لأدبنا القصصي الناشيء الذي كان لا بد له أن يمر بمراحل كثيرة قبل أن يصل الى درجة الاصالة التي تتيح له صدق التعبير عن واقع الحياة التي يعيشها كتابه وعن أحاسيسهم ومشكلاتهم كان لا يزال في دور التقليد والاقتباس والتأثر بالغير .

فالقصة بمفهومها الحديث دخيلة على أدبنا العربي ، قد انقطعت الصلة بينها وبين تراثنا القصصي القديم ، بينما نجد شعرنا العربي القومي جذورا راسخة ، بعيدة الغور في أدبنا العربي ، وما يقال منه اليوم ما هو الا امتداد لما قبله ، ثم ان القصة في حاجة الى زمن طويل كي تختمر في الذهن وكلما بعدت هذه المدة الزمنية عن الحادثة بدت معالم القصة أكثر وضوحا في ذهن القاص أي من الصعب جدا أن تكتب ابان الحادثة ، واذا كتبت فقلما تبلغ مستوى النجاح .

وهناك سبب آخر لعله أقوى الاسباب التي دعت الى تخلف القصة عن بقية فنون الأدب في الميدان القومي ، وهو اننا لم نكن في بدء كتابتنا للقصة ننظر اليها نظرة جدية ، بل كنا نجدها أضعف من أن تستوعب موضوعا جديا كالموضوع القومي بل كانت تكتب عالبا للتسلية وتعتبر مضيعة للوقت . يقول الدكتور يوسف نجم في كتابه « القصة في الأدب العربي الحديث » :

ان الادباء كانوا يحتقرون كتابة القصة ، ويعتبرونهم فئة متخلفة من ذوي المواهب الهزيلة . لذا كانت المجلات الرصينة تتنكب عن نشر القصص . فالمقتطف احجمت في بادىء الامر عن نشر القصص ، و أبدت في مناسبات كثيرة استنكارها لقراءة الروايات لما تسببه من قلق للشبان والشابات ، وطلبت من المربين والأولياء ان يحثوا اولادهم على قراءة الموضوعات النافعة التي تربي القوى العقلية والأدبية كي لا يتاح لهم الوقت الكافي لقراءة القصص والروايات مما يفسد الاخلاق .

فكيف بعد هذا تستطيع القصة ان تخوض المواضيع الحدية كموضوع النضال ضد الاستعمار ، او المواضيع القومية الاخرى ، ولغيف من كبار الأدباء وموجهي الأدب ينظرون اليها هذه النظرة ؟

ولكن بالرغم من هذه الآراء ، وفي الفترة نفسها ، قيض الله للقصة ادباء من روادها الأوائل كالأستاذ محمود تيمور الذي دأب على كتابتها ما يقارب نصف قرن بما اوتي من طاقة فنية هائلة على ابداعها فأخذ بيدها منذ كانت طفلة تحبو وراح يشجع الأدباء الناشئين على كتابتها حتى درجت في كنفه على قدميها وتبوأت مكانها في أدبنا الحديث .

كذلك نجد من كبار الأدباء جبران خليل جبران يحض على كتابتها . يقول الأستاذ يوسف نجم في كتابه « القصة في الأدب العربي الحديث » :

عثرنا بين رسائل جبران خليل جبران في نشرى على رسالة كتبها الى أمين ريحان صاحب مجلة الهلال عام ١٩١٩ يقول فيها :

سوف أبعث لك بمقال او بحكاية للسنة القادمة وعلى ذكر الحكاية الا ترى أننا بلغنا في نهضتنا الأدبية ، او شبه الأدبية بقطة تستدعي تشجيع الكتاب وترغيبهم في ابداء افكارهم ، ومنازعهم واخلاقهم في قالب الحكاية ؟ لقد مل الناس المقالات والقصائد ، والشرقي يميل طبعا الى سرد الحكايات . بل هو الذي ابتدع هذا الفن . ولكن الشرقي في ايامنا هذه لا يتحول الى كاتب ، أو شاعر حتى تنبي افضل مواهبه ان الحكايات والروايات هي التي بثت الانقلابات السياسية والاجتماعية في اوربا ، وامريكا .

وعندي انه يجب علينا ايقاظ هذا الميل في الشرقيين لانه افضل وسيلة لما تكنه الغريزة الفنية . فالحياة الفنية لا ولن تعبر ذات شأن الا بواسطة الاخلاق الفني ، وليس هناك شيء ادعى للاخلاق الفني من الحكاية . جبدا لو كتبت فصلا في هذا الموضوع واتبعت رغبة الهلال في الحصول على الحكايات . انتهت الرسالة .

ولكن جبران نفسه لم يكتب القصة التي تعبر عن ثورة الانسان العربي آنذاك على مستعمريه ، مع ان لسان — وعلى جبران — كان اكثر الاقطار العربية تأثرا بالظلم التركي . كانت بعض قصص جبران فلسفية ، وبعضها الآخر يدور حول نقد رجالات الدين أو نقد الاوضاع الاجتماعية في بلاده لا سيما ما كان منها يتعلق بالزواج ، وبتسلط حرية المرأة . كذلك يفتقد هذا اللون في انتاج ميخائيل نعيمة القصصي ، وعلى يدي هذين الأديبين ازدهرت القصة في المهجر ولكنها لم تبرز في المواضيع القومية التي برز فيها الشعر المهجري ، حيث كان يتاح في المهجر للأدباء حرية النشر ، حين كان يتحرق عليها رملاؤهم في البلاد العربية . وبالرغم عن ذلك كله لا نعدم بين رواد القصة الأوائل من اتسعت قصصه لمعالجة قضية الحرية ، والحض على الثورة ضد الحكام الظالمين .

يقول الاستاذ شاكر مصطفى في كتابه « تاريخ القصة في سورية » :

ان اسكندر المراش كتب عام ١٨٦٢ قصة بعنوان (غاية الحق) وتعتبر اقدم مشروع قصصي في الادب العربي الحديث ، وهي رمزية تتركز على مفهوم الحرية ، وتحرير الانسان من رقة العبودية . كتب عن هذه القصة اديب يسمى عبد المسيح انطاكي يقول :

ان اول من اقدم على تنبيه خواطر العرب على النهوض ، هو المرحوم فرنسيس المراش في قصته (غاية الحق) . ويؤكد ان هذه القصة بتاريخها المبكر تستطيل من ابرز الكتب التي كتبت لتطوير الوعي العربي الحديث . كذلك نجد ايضا قاصا آخر نحا منحى المراش هو القاص السوري نعمان القساطلي الذي نشر عام ١٨٨٣ قصصا يدعو فيها الى فكرة الحرية ، الدعوة الخطرة التي كان من الممكن ان تكلفه حياته في ايام السلطان عبد الحميد . فتراه يحمل على الملوك ، وظلم الملوك ، ويطعن كاولئك الذين سبقوا الثورة الفرنسية ضرورة الثورة على الظلم والطغيان ، ويدعو الى حب الوطن كلما اراد التحدث عن النهضة والتقدم ، ولا شك ان جرائه اذ ذاك تدهشنا حتى تكاد تحسب الا عبد الحميد ، ولا رقابة ولا تجسس على الرؤوس والقلوب .

وما عدا هذين القاصين من الرواد الأوائل لا نلمح القصة التي تمهد للثورة وتحث عليها ، او تؤرخ لمعركتنا النضالية في سبيل الحرية الا ما ندر جدا او من النوع الذي لا يعيش طويلا لضعف تركيبه الفني .

ويأخذ ادب القصة في النمو والانتشار ، ويصبح معظمه مركزا على نقد اوضاعنا الاجتماعية ، وابراز عيوبها فضحة ، وعلى التقاليد البالية التي تسبب تأخرنا عن ركب الحضارة . ثم تظهر قصص تصور نضالا طبقيا بين الشعب الواحد فتحمل على الاقطاع ، وما ينجم عنه من فقر وجهل ، وتمهد للاشتراكية ، ويظهر جليا في هذه القصص تأثرنا بالادب الروسي المترجم . ولا ننكر ابدا أن هذا كله ادب قومي .

يقول — جان بول سارتر — ان الادب العربي الحديث يجب ان يعبر عن نضال شعوبه ، وان الانسان يجب أن يكون مادته ، وان التقدم والحرية يجب ان يكونا هدفه .

ويرد توفيق الحكيم على (سارتر) في كتابه (أدب الحياة) بما معناه ان الادب العربي لم يهمل هذه الرسالة ابدا . والا لما نشر (سارتر) نفسه فصولا متتابعة عن كتاب توفيق الحكيم (يوميات نائب في الارياف) في مجلته (اوطان مودرن) والمعروف في فرنسا وفي كل مكان من العالم ان (سارتر) لا ينشر في مجلته هذه الا كل ادب يتجه الى الاهداف عينها ووصفها ووجدها معبرة عن نضال الشعوب مدافعة عن الانسان ، مكافحة عنه ضد الظلم ، معينة على الحرية والتقدم . وقد اصاب توفيق الحكيم في رده هذا ، لان تصوير واقعنا بما فيه من ظلم وتأخر وانحراف كما صوره في يوميات نائب في الارياف ينبه الاذهان لاصلاح هذا الفساد فهو لا شك ابدا ادب قومي نضالي كالكثير من قصص الاستاذ محمود تيمور او

قصص مجموعة (المعذبون فى الارض) للدكتور طه حسين ، ولكن نقصد من بحثنا هذا القصة التى تحرض على النضال فى سبيل الاستقلال و الحرية او تؤرخ للمعركة فيما بعد .

فما من حرب او ثورة الا وتمخضت عن قصص وروايات تؤرخ لها ادبيا . فالتاريخ مهما كان صادقا لا يستطيع ان يصور لنا تفاصيل حرفية او يرسم لنا مشاهد نابضة بالحياة كما تستطيع القصص والروايات ؛ ولو بعدت هذه عن الحقائق الواقعة بقدر ما يقترب منها التاريخ .

وتظل القصة من طوله وقصيره متخلفة عن غيرها من فنون الادب فى دعم الحركة النضالية فى سبيل الحرية حتى عام ١٩٣٩ حيث ظهرت شائرها على يد القاص ـ توفيق عواد ـ فى قصته «الرغيف» وهى القصة التى استطاعت ان تعبر اصدق تعبير عن الثورة القومية ضد الحكم التركى . وفى السنة نفسها ظهرت (قدر لهو) لشكيب الجابرى . وسبقهما قليلا ـ عودة الروح ـ لتوفيق الحكيم .

ونحن ان قصة الرغيف تصور صراعا دخلت فيه شعوب عدة اقطار عربية لا شعب واحد فقط رأينا ان نختارها للتلخيص كنموذج للقصة القومية .

***

ان قصة الرغيف تصور وعى الطبقة المفكرة فى العالم العربى لمأساة الأمة العربية ابان الحكم التركى ، ويجسد المؤلف نموذجا لهذه الطبقة الشاب اللبنانى ـ سامى عاصم ـ وهو بطل الرواية . شاب لبنانى مفكر تشتعل فيه حماسة وطنية تدفعه الى الجهاد فى سبيل تخليص وطنه من العبودية ،وتطارده السلطات التركية مع من تطارد من الاحرار ، ثم يقبض عليه ويزج فى سجن (عاليه) بانتظار محاكمته . ويساعد العذاب المفكر اثناء استجوابه فلا يبوح بمحاربى رفاقه . ثم يستطيع ان يؤثر فى قائد الحرس فيفر معه من السجن ، ويأتى الأتراك بخنثيين مستورتين بعباءات ليوهموا الناس بانهما خنثا الرجلين الفارين ، وقد قتلا اثناء فرارهما .

ونرى (وردة) ـ وهى حبيبة سامى عاصم وخطيبته ـ الخنثى فيهلع قلبها من الحزن واليأس . ثم تشتد بها عاطفة الانتقام وعندئذ تستجيب لدعوة الحاكم التركى الذى كان يرغب فيها منذ زمن طويل ، فقد جاءت ترجوه ان يسمح لها برؤية حبيبها ـ سامى عاصم ـ فى السجن وتدخل مع الحاكم الى غرفته الخاصة ، وتجلس الى جانبه وهو يشرب فاذا ثمل تتناول مسدسه وتقتله به . ثم تفر من القصر وتنضم الى فرقة من الثائرين كالوف الشباب العربى المتحرر فى سائر البلاد العربية . ثم يبلغها ان سامى لم يمت وانما التحق بالمركز الرئيسى للثورة . ويظل يجاهد ضد الترك حتى يسقط شهيدا فى ميدان المعركة . ونستطيع ان نقول ان توفيق عواد قد عالج بعاطفة عامة ما زالت الى الآن بالرغم من مضى خمس وعشرين سنة على الرواية جديرة بالمعالجة، كالطائفية مثلا فهو يتحير ابطاله من المسلمين والمسيحيين على السواء ؛ ويجعل بينهم تعاطفا وتماسكا تركيه الروح الوطنية فتطغى على العاطفة الدينية . يقول بطل الرواية سامى عاصم لرئيس الحرس وهو مسلم عراقى :

اليوم ولدت القومية العربية الصحيحة ، ان هذه الثورة التي أمشي فيها انا المسيحي العربي الى جانب العربي المسلم لتحارب عدوا مشتركا لبلادنا هو التركي سواء اتبع محمدا أم المسيح أم الشيطان .

كذلك نجده يتعد شخوص روايته من لبنان والعراق وسورية معتبرا الوحدة العربية قائمة بينهم . فهم يسعون جميعا لهدف واحد هو تحرير الوطن العربي . كما انه يشرك المرأة في الجهاد ويعطيها دورا هاما في المعركة ، ويبشر بالاشتراكية . كل هذه المشكلات التي لا تزال قائمة في الوطن العربي حاول توفيق عواد معالجتها في روايته (الرغيف) ومما يؤسف له تماما ان توفيق عواد هذا قد انقطع عن كتابة هذا اللون من الأدب بعد روايته الرغيف على الرغم من النجاح الذي أصابه فيها . كان الرجل قد قال كل مايريد ان يقوله، او كان كفاحنا قد انتهى بانتهاء الحكم التركي..

وتمضي فترة طويلة والنتاج القصصي في ازدياد مستمر ولكن دون ان نرى فيه انعكاس شعورنا القومي ونضالنا ضد المستعمر كما رأيناه في قصته (عودة الروح) لتوفيق الحكيم أو في قصة الرغيف ، أو كالذي كنا نراه في سائر فنون الأدب من شعر ونثر . مع أن الحركة التحريرية كانت على أشدها في الوطن العربي. ثم بدأت تظهر بوادره في القصة القصيرة ، ومما لا ريب فيه ان محاولات كثيرة بذلت لكتابة القصة القومية ولكن الضعف الفني في تركيبها حال دون انتشارها أو خلودها ولو لأمد قصير . ويظل هذا حالها ان تناولها نكبة فلسطين ... تلك المأساة المريعة التي جعلتنا نصحو مذعورين أمام المسئوليات الكبرى التي يتحتم علينا مواجهتها في كل ميدان . نجد أنفسنا نجاه تجارب عميقة تهز مشاعرنا كالقتل والتشرد والجوع والمرض والتمزق والفشل نجد ذلك كله ماثلا في اللاجئين العرب كيفما التفتنا . وتأتي تلك التجارب العميقة مواكبة لحركة الالتزام التي طغت طغيانا على الأدب العالمي بصورة عامة آنذاك ثم تسربت الى الأدب العربي . ويصبح كأنه حتما لزاما على كل أديب أن يكتب عن المأساة ، وكان لابد للقصة التي تعبر عن الخيال القومي أن تنطلق من عقالها وتلحق بالركب . وكان الوقت قد حان أيضا لنضجها واستطاعتها التعبير عن واقعنا المرير . ويندر حينئذ أن نجد قاصا من قاصينا الشباب لم يتأثر بالنكبة ويتفاعل بها ، ويكتب قصة عنها . حتى ان بعض القصص التي كتبت عن الثورة السورية كتبت بعد نكبة فلسطين . وبين الحادثتين ما يقارب الربع قرن ، كرواية (أرض السلولات) وقد عالجت هذه الرواية محاولة الدولة عام ١٩٦٠ وتجري حوادثها أبان الثورة السورية . وكثير غيرها من القصص القصيرة .

بعد مأساة فلسطين بسنوات قليلة تندلع ثورة الجزائر ، والشعور العربي في أوج تأزمه وعنفوانه ، ثم تأتي حادثة العدوان على بور سعيد ، ثم الوحدة بين مصر وسورية ، ثم ثورة العراق على الحكم الملكي . ومن الطبيعي جدا أن تصبح هذه الثورات مادة خصبة للقصاصين العرب يستوحون أحداثها ويقبلون على كتابتها بحماسة كما نعتقدها عند القصاصين الأوائل .

فنحن مثلا لم نقرأ قصصا عن شهداء السادس من أيار الذين اعدمهم السفاح

الحرب في جمال باشا ، او عن اعدام عمر المختار في برقه . وكل هذه الحوادث كانت جديرة بان توحي بقصص قومية رائعة ، بينما نجد الشعر — كما قلنا سابقا — لم يقصر في ذلك ابدا .

ويندفق سيل من القصص القومية القصيرة فتظهر مجموعات قصصية تحمل عادتا كعنوان لها اسم القصة القومية في المجموعة كجواز مرور حتى لو كانت تلك القصة القومية اضعف من غيرها من وجهة فنية . نستطيع ان نذكر من هذه المجموعات لا على سبيل الحصر او التسلسل بل على سبيل المثال ، ولاعطاء فكرة عن غزارة الانتاج في هذا المضمار .

مجموعة تاريخ جرح ، للاستاذ فؤاد الشايب . والدمع المر للدكتور سهيل ادريس ، وارض المعركة لعبد الرحمن الشرقاوي ، وحمل السيف يقول ، لعيسى الناعوري ، والتراب الحزين للدكتور بديع حقي ، والشوق واللقاء لفاضل السباعي ، والمناديل البيض لمواهب كيالي ، وعروب في الغجر لوليد مدفعي ، والظل للدكتور يوسف ادريس ، وحتى القطرة الاخيرة لعارف رورور ، ويحدثونك من القلب لقدري الحجر ، والشرارة الاولى لمراد السباعي ، والثوار مروا بيننا لعادل ابي شنب ، ودرب الى القمة المجموعة القصصية التي اصدرتها رابطة الكتاب العرب في سورية . هذا عدا عن القصص القومية القصيرة التي نقرأها كل يوم في الصحف والمجلات او في مجموعات كقصص سميرة عزام القومية ، ومطاع صفدي ، وخليل هنداوي وغيرهم وغيرهم مما لا يسمح المجال بتعدادهم .

أما الرواية او القصة الطويلة فحصيلتنا منها اضعف من القصة القصيرة . وتمضي فترة طويلة دون ان نحظى برواية او بقصة طويلة ذات طابع نضالي الى ان يحظنا الاستاذ محمود تيمور بقصتين طويلتين من هذا القبيل هما المصابيح الزرق . وثائرون يصورفيهما المؤلف بوادر الوعي القومي عند الشباب، ثم الصراع بين الشعب ومستعمريه ، ثم تظهر ثلاثية نجيب محفوظ — بين القصرين ، وقصر الشوق ، والسكرية — ثم تتتالى الروايات والقصص الطويلة ذات الطابع القومي النضالي نذكر منها الحي اللاتيني لسهيل ادريس . ورد قلبي ليوسف السباعي ، لا تطفئ الشمس لاحسان عبد القدوس، وفي بيتنا رجل له ايضا ، وقصة حب للدكتور يوسف ادريس، جيل القدر لمطاع صفدي ، ارض البطولات لعبد الرحمن الباشا ، ورجال في الشمس لغسان كنفاني و و ...

ولو استطعنا ان نضيف الى هذه الروايات ، الروايات التي كتبها الادباء الجزائريون باللغة العربية وعبروا فيها عن نضال الشعب العربي في الجزائر لكان لدينا حصيلة رائعة من حيث الكم والكيف ولكن هذا متعذر على ما نرى ، لان ملايين العرب لا يستطيعون ان يقرأوا هذا الادب . في ثلاثية نجيب محفوظ لم تكن الفكرة القومية النضالية هي الركيزة التي تدور حولها حوادث هذه الثلاثية ، ولكنها كانت جزءا هاما من حياة اسرة مصرية من الطبقة البرجوازية الصغيرة ، ومنها اننا نستطيع ان نرى تطور نضالنا القومي في البلاد العربية طيلة ثلاثة اجيال من خلال انعكاسه

على هذه الأسرة لتسابه أوضاعنا الاجتماعية والثقافية والاقتصادية ، وأخيرا موقف من الاستعمار ، وموقف الاستعمار منا ، رأينا أن نلخصها ، ولما كان لابد من هذه الرواية الطويلة المتشابكة الأحداث سوى الناحية العاطفية كان لا بد لنا أن نفصلها عن بقية حوادث الرواية ونركز اهتمامنا عليها .

يصور لنا نجيب محفوظ الشعور القومي عند السيد أحمد عبد الجواد ، الباقر في سوق النحاسين وب هذه الأسرة شعور سطحيا كغيره من ملايين العرب غير المثقفين في ذلك العهد ، يحب السيد عبد الجواد وطنه ، لأن حب الوطني من الايمان ، ويكره المستعمرين الكفار ، ولا يحل بماله قدر مستطاعه لدعم الحركة الوطنية عندما يطالبه القائمون عليها بالتبرع لها ، يصفق للمتظاهرين ، ويلهف على قراءة أخبار الزعماء المنفيين — سعد وعادل ورملائه — وتتقد فيه الحماسة لنصرتهم ، ولكنه يريد دائما أن يبقى هو وأولاده بمنجاة عن خطورة الاندفاع في المعركة . وهذا يعني أن شعوره القومي لم يرق الى درجة التضحية ، لأنه لم يدرك بعد مدى الخطر الذي يحيق به . لذا نراه يسعى في توبيخ ابنه — فهمي — الطالب في الجامعة عندما رآه حين اتصاله الى المعركة الوطنية ، فأتى به الى غرفته وصفعه بالحسنى ويطلب منه أن يقسم على القرآن بألا يعود الى ثورته هذا . ولكن — فهمي — وهو النموذج المثقف للشباب العربي الواعي آنذاك — يأبى أن يضاع لارادة أبيه ، ويتحرا لأول مرة على مجادلته ، ويدحض آراء أبيه بآيات من القرآن تحض على الجهاد ، ولكن الوالد لا يقتنع ، والابن لا يخضع لارادة أبيه . ويظل ماضيا في طريقه الذي اختطه لنفسه فيقول :

سيان ان أحيا أو ان أموت ... الايمان أقوى من الموت ، والموت أشرف من الذل . فهنيئا لنا الأمل الذي عاد الى جانبه الحياة ، أهلا بصباح جديد من الحرية ولنقض الله ما هو قاض .

ويقضي الله أن يستشهد هذا الفتى وذلك الصباح الجديد من الحرية في احدى المظاهرات ! . وتتحقق نبوءة الأب .

هذه المأساة التي مرت بالسيد أحمد عبد الجواد تجعله أكثر ارتباطا بمأساة وطنه ، وأعمق فهما لها ، وأكثر حماسة .

ويتحقق شيء من استقلال البلاد فيستسلم الزعماء الوطنيون الحكم . ولكن سرعان ما يخيب أمل الشباب الواعي بزعمائه عندما يرى تكالبهم على الحكم وتسابقهم تقسمة البلاد الى جانب منافعهم الخاصة .

ويشأ جيل من الشباب أكثر ثقافة ووعيا من الجيل الذي سبقه لكنه يقف مكتوف الأيدي تجاه هذه الأوضاع ، يصاب بشيء من التقزز والاشمئزاز ، وضياع الثقة بالنفس . ويجد المؤلف — كمال — وهو الابن الأصغر للسيد احمد عبد الجواد لهذا الجيل — ما أكثر امثال هذا النموذج في جميع البلاد العربية ! — الشباب المثقف الواعي الذي لا ينقصه الايمان بعصبية بلاده ، انما تنقصه الثقة بنفسه وبمجتمعه ، وبزعمائه ، وبمقدرته على خوض المعركة ، وكلما أوغل هذا الجيل في الثقافة العربية

ارداد صمتا ، وتجادلا ، وفشلا ، وكأنه قد أصيب بعقدة تسبب له اليأس والتجادل كلما كان يقارن بلاده بلاد الغرب .

نرى «كمال» هذا فاشلا ايضا في حياته الخاصة مترددا دائما أبدا ، مشلول الحركة ولم يقدم على الزواج عندما اتيحت له الفرصة أن يتزوج ممن يحب لكثرة تردده ، يتأفف من مجتمعه ومن طراز حياته ، ويتطلب الأفضل ، ولكنه كان اعجز من أن يحقق هذا الأفضل .

لم ير فيه اقدام اخيه «فهمي» على التضحية في سبيل حريه بلاده على الرغم من كونه اعمق فهما لقضاياها بل كان يكتفي بمجادلات ومناقشات سلبية تدور بينه وبين أصدقائه ، ولم يخرج عن هذا النطاق ، أبدا ، ولم يرض عن نفسه أبدا حتى بعده يقول :

عشت معذب الضمير كما يشتهي لكل جاثر أن يعيش .

وبأبي جيل آخر من الشباب العربي الواعي بعد أن الاستمرار في هذه السلبية لا يجدي شيئا ، فيتحتم عليه اذن أن يخرج منها ويواجه مسئولياته . ولكن من أين يبدأ ؟ وأي الطرق يسلك ؟ .

ويقع في بلبلة وحيرة واضطراب . ويرى المؤلف قد وفق الى أبعد حدود التوفيق عندما قدم لنا نموذج هذا الجيل الضائع بين الدروب في شخصيتي أخوين توأمين من أحفاد السيد أحمد عبد الجواد هما : أحمد ، وعبد المنعم . لقد تربيا في بيت واحد ، وفي بيئة واحدة . ولما نشأ شعرا بالحيرة والبلبلة كغيرهما من شباب الجيل الضائع .

وينهي نجيب محفوظ روايته وهو يصور لنا ثورة تغلي مراجلها في الصدور ولكنها لم تهتد بعد الى الطريق السوي الذي يؤدي بها الى تحقيق اهدافها . لا شك أن نجيب محفوظ قد ارخ لهذه الفترة من النضال القومي واعطانا عنها صورا واقعية تماما في اطار فني . فلو اتيح لشخوص روايته أن يوجدوا في الحياة ، وفي نفس الظروف التي حدثت فيها الرواية لما كان لهم الا أن يتصرفوا كما شاء لهم نجيب محفوظ .

يبدو لنا بعد هذا كله أن القصة القومية من قصيرة وطويلة بدأت تتبوأ مكانتها في ادبنا القومي . بل بعدها بعد تحللها الطويل تسير بخطى سريعة ، فقد ارداد في الآونة الأخيرة اعمال القصاصين والروائيين على كاهلها لانها — كما قلت سابقا — اطوع فنون الأدب على التوجه وبث المبادىء ، من اجل ذلك كله تقام لها المسابقات وتقدم الجوائز الثمينة للفائزين ، ومن يدري ؟ لعلها تلمع قصب السبق في نهاية الشوط .